

المحاضرة الثالثة - ٠٣ - حملة نابليون على مصر عام ١٧٩٨م

مقدمة:

في الوقت الذي كان فيه الوطن العربي يتخبط في الفتن والثورات والحركات الانفصالية عن الدولة العثمانية، كان اهتمام الدول الأوربية بالمشرق العربي مركزاً على الناحية التجارية. ولكن بدخول بريطانيا وفرنسا حلبة الصراع والتنافس الاستعماري في حوض البحر المتوسط أخذ الخطر يحيط بالوطن العربي. وقد بدأ هذا الخطر بقدم الحملة الفرنسية لاحتلال مصر بقيادة الجنرال نابليون بونابارت في الأول من يوليو ١٧٩٨م.

شكلت تياراً حمل الاستعمار إلى المشرق العربي ومؤثرات مدنية غربية لعرب المشرق لا علم لهم بها من قبل.

فقد كانت الحملة الفرنسية نقطة تحول في حياة الوطن العربي، إذ أعقبتها نتائج اجتماعية وسياسية ودولية وعلمية واقتصادية خطيرة.

١ - النزاع بين إنجلترا وفرنسا:

اتجهت كل من إنجلترا وفرنسا إلى الاستعمار منذ القرن ١٧م وتجاوزت مستعمرات الدولتين كل من الهند والعالم الجديد مما أدى إلى وقوع الصراع بينهما. وانتهى هذا الصراع العنيف بتنازل فرنسا لإنجلترا عن كل مستعمراتها تقريباً وذلك بمقتضى معاهدة باريس عام ١٧٦٣^١. وعندما قامت الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩م للحدّ من استبداد الملوك والكنيسة والقضاء على الإقطاع، ونشر مبادئ هذه الثورة المتمثلة في "الحرية والمساواة والإخاء".

وجد ملوك أوروبا في هذه المبادئ خطراً عليهم، وخافوا من أن تتسرب الأفكار الثورية للثورة الفرنسية إلى شعوبهم، ومن أن تتهاوى تيجانهم مع رؤوسهم تحت

^١ - جفري براون، تاريخ أوروبا الحديث، ترجمة علي المزروقي، ط٤، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ص٣٣٠، ص٣٣١.

المقصلة مثلما جرى للملك لويس ١٦ عام ١٧٩٣م^٢. فألفوا تحالفا تزعمته النمسا وإنجلترا وكادوا أن يستولوا على العاصمة باريس بجيوشهم، لكن الثورة الفرنسية تمكنت من القضاء على محاولاتهم وأبادت جيوشهم^٣ واستمر الأمر على هذا المنوال كلما تألف حلف جديد تقضي عليه الثورة حتى قيام حكومة الإدارة في فرنسا عام "١٧٩٥-١٧٩٩م" وكانت إنجلترا هي المحرك الأساسي ضد الثورة الفرنسية، إذ كانت تسعى إلى تأليف تحالف أوروبي جديد كلما قضي على سابقه، فرأت حكومة الإدارة أن تؤدبها وترغمها على عقد صلح معها بتهديد مستعمراتها في الهند أعز مستعمراتها بل قطعها ومن ثم السيطرة عليها^٤، بعد الإستيلاء على مصر التي تكوّن الطريق الإمبراطوري إليها والاتصال بالأمرء الهنود وتحريضهم على الثورة ضدّ إنجلترا لإجبارهم على عقد الصلح مع فرنسا.

أ- أسباب استعمارية:

كانت الحملة حركة بارعة ذات هدف إستراتيجي مدروس بعناية فائقة^٥ لأن نابليون كان يدرك جيدا أن مصر هي مفتاح الشرق والحاجز المنيع الذي يحميه بإمكانياتها البشرية ومكانتها الثقافية والحضارية كقلعة من قلاع العالم الإسلامي، ناهيك عن موقعها الجغرافي المتميز بإستراتيجيته وغناها الواسع وخصبها كقيلة بأن تسد حاجتها من المستعمرات، ثم تكون منطلقا نحو البلاد العربية الأخرى والآسيوية لتوسيع نطاق الإمبراطورية الاستعمارية المنشودة^٦.

^٢ - نفسه، ص ٣٨٧.

^٣ - جفري براون، المرجع السابق، ص ص ٣٧٣، ٣٧٤.

^٤ - سليمان الغنام، سياسة محمد علي باشا التوسعية في الجزيرة العربية والسودان واليونان وسوريا "١٨١١-١٨٤٠م"، قراءة جديدة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م، ص ٢٣.

^٥ - نفسه.

^٦ - أحمد إبراهيم وآخرون، تاريخ العرب الحديث والمعاصر، ج١، مطابع البعث، دمشق، سوريا، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م، ص ٥٥.

وبالإستيلاء على هذا البلد العربي يمكن لفرنسا من تكوين إمبراطورية استعمارية في الشرق تستعيز بها عن فقدانها لمستعمراتها في أمريكا والهند إثر حروب القارة الأوربية السابقة "حرب السنوات السبع".

ب- أسباب شخصية:

كان أعضاء حكومة الإدارة بفرنسا يتخوفون من طموحات نابليون في تأسيس إمبراطورية شرقية شبيهة بإمبراطورية الإسكندر المقدوني^٧ ومطامعه السياسية بعد أن ذاع صيته وكبرت شعبيته نتيجة انتصاراته في إيطاليا وإرغامه النمسا على عقد صلح مع فرنسا. وعليه أراد خصومه في الحكومة إبعاده عن العاصمة باريس خشية أن تساعده الظروف في الإطاحة بالحكومة.

ج- سبب مباشر تأديب المماليك:

قبل الحملة الفرنسية على مصر كان الإنجليز والفرنسيين يتنافسون فيما بينهم في التزلف والتودّد والتقرب من المماليك للحصول على امتيازات وتسهيلات تجارية لهم في مصر، وبينما كان المماليك يبادلون نفس الشعور مع الإنجليز أعطوهم امتيازات تجارية في مصر والبحر الأحمر بموجب معاهدة عقدت بين الطرفين في عام ١٧٩٤م مع حاكمي مصر مراد بك وإبراهيم بك^٨. والظاهر تاريخياً أن هذه الاتفاقية رفضها السلطان سليم الثالث^٩.

بينما نراهم رفضوا مثلها مع الفرنسيين بل أسأوا كذلك معاملة التجار الفرنسيين مما دعا قنصل فرنسا في مصر "غالون" بتبني وجهة نظر العسكريين في مهاجمة مصر بالرغم من التعاون القائم بين فرنسا والدولة العثمانية^{١٠}. أن يكتب إلى حكومته قائلاً: "...إن المماليك يريدون أن نكون عندهم بقوتنا وبالرغم من إرادتهم..." هذا التحريض هو في حقيقة أمره دعوة إلى تأديب المماليك والانتقام منهم لأنه اكتشف ضعفهم وعدم استطاعتهم الدفاع عن مصر.

^٧ - جفري براون، المرجع السابق، ص ٣٩٢.

^٨ - عبد المنعم الهاشمي، الخلافة العثمانية، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥م، ص ٤٠٥.

^٩ - نفسه.

^{١٠} - نفسه وأنظر كذلك محمود فؤاد شكري، الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين، ص ٤٢، ص ٥٢.

٢ - إعداد وقيام الحملة الفرنسية:

كانت حكومة الإدارة قد وضعت تحت تصرف نابليون بونابارت جيشاً كبيراً لغزو بريطانيا. وقد أثبتت الدراسات استحالة تنفيذ هذا المشروع وأنه من الأفضل ترجيح غزو مصر عليه، فقدم نابليون تقريراً بذلك إلى حكومته مبيناً أن ضرب البريطانيين يجب أن يتم في مصر، ولاسيما أن الدولة العثمانية ضعيفة وآخذة في التفسخ والتداعي ولا تستطيع المقاومة ومثلها المماليك، فوافقت الحكومة على طلبه^{١١}.

وأتى نابليون استعداداته في غاية التكتّم لئلا يعلم بها الأسطول البريطاني فيحبط المحاولة أو تعلم بها الدولة العثمانية فتستعد لمقاومتها، واصطحب مجموعة كبيرة من أفضل العلماء "١٢٢٢" وقيل "١٤٦ عالمًا" في مختلف العلوم والدراسات لدراسة أحوال مصر، مع مطبعة فرنسية وحروف فرنسية وعربية وتراجم ومستشرقين.

وفي ١٩ مايو ١٧٩٨م غادرت الحملة مدينة طولون على رأس جيش مؤلف من ٣٧ ألف جندي مدّرب اكتسب خبرته في معارك فرنسا وإيطاليا بالإضافة إلى ١٠ آلاف بحار و ٥٥ سفينة حربية و ٢٨٠ ناقلة متوجهة إلى مصر، فاستولت في طريقها على جزيرة مالطة وجعلتها قاعدة تضمن من خلالها اتصالها بفرنسا في يونيو ١٧٩٨م. واصطحب بعض العرب المقيمين هناك ك مترجمين وأدلة في حملتها^{١٢}.

ثم تابعت سيرها نحو الإسكندرية فوصلتها في ١ يوليو ١٧٩٨م، وكان أهلها قد علموا بخبرها من الأسطول الانجليزي، فقاوموها ببسالة، ولكنهم لم يستطيعوا دفعها فاحتلت المدينة عنوة وبالقوة يوم ٣ يوليو ١٧٩٨م^{١٤}.

١١- أحمد إبراهيم وآخرون (المرجع السابق)، ص ٥٦.

١٢- عبد المنعم الهاشمي، المرجع السابق، ص ٤٠٧.

١٣- نفسه.

١٤- أحمد إبراهيم وآخرون، (المرجع السابق)، نفسه.

ويعيد الكثير من المؤرخين فشل تصدي سكان المدينة للحملة إلى أن المماليك لم يهتموا بتحصينها أو بتهيئة وسائل الدفاع عنها، ف وقعت فريسة سهلة في أيدي الفرنسيين.

٣- دخول القوات الفرنسية بقية الأراضي المصرية:

وزع نابليون منذ نزوله الأراضي الفرنسية منشورا على الشعب المصري مطبوعا باللغة العربية افتتحه باسم الله الرحمن الرحيم وبيعض الآيات القرآنية الكريمة، وضمنت عبارات التودد مبيِّناً أنه جاء إلى مصر بموافقة السلطان ورضاه ليؤدب المماليك ويزيح عن المصريين نير حكمهم الظالم، وأنه صديق للمسلمين محب لعاداتهم وتقاليدهم. وقد نادى بالمساواة بين السكان ودعاهم إلى نبذ طاعة المماليك لأنه ليس فيهم ما يميزهم عن الشعب المصري^{١٥} والظاهر من خلال كل ما سبق أن نابليون بلغ قمة الإدعاءات الكاذبة والتدليس والخداع والنفاق لجرّ المصريين إلى جانبه.

ترك نابليون بالإسكندرية حامية عسكرية بقيادة القائد كليبير^{١٦} ثم أرسل بعض قطع أسطوله لاحتلال بلدة "رشيد" في طرف خليج أبي قير، والسير منها إلى القاهرة عن طريق النيل. بينما سار هو بجيشه عن طريق الصحراء بعد أن تغلب على المقاومة.

ولما علمت سلطات القاهرة باحتلال مدينة الإسكندرية قرّر الوالي العثماني ورئيسا المماليك "مراد بك وإبراهيم بك"، أن يسير مراد بك إلى الإسكندرية، وأن يبقى إبراهيم بك في القاهرة للدفاع عنها عند الحاجة، وقد تلاقى جيش مراد بك مع الفرنسيين في "شبراخيت" واستطاع أن يهزم مراد بك. ثم تقدم إلى "أمبابة" قرب القاهرة^{١٧} وقد خرج المصريون لملاقاة الحملة لعلمه بضعف المماليك وعجزهم عن مقاومة الفرنسيين، ولكنهم على الرغم مما أبدوه من شجاعة في الدفاع عن أرضهم لم يستطيعوا الصمود أمام الفرنسيين، خاصة وأن المماليك قد استهانوا بقوة الحملة ولم

^{١٥} - أحمد إبراهيم وآخرون، نفسه، ص ص ٥٦، ٥٧.

^{١٦} - عبد المنعم الهاشمي، المرجع السابق، ص ٤٠٧.

^{١٧} - عبد المنعم الهاشمي، المرجع السابق، ص ٤٠٧.

يعدّوا لها العدة اللّزمة فضلاً عن كونهم أهملوا تسليح الشعب المصري وتهيئته للقتال المنظم.

وقد فرّ مراد بك إلى الصعيد وإبراهيم بك إلى الشرقية ومنها إلى سوريا ودخل نابليون القاهرة بعد معركة الأهرام وأمبابة^{١٨}. التي سقط فيها ٣٠٠٠ قتيل من مجموع ٦ آلاف جندي وهرب الباقي إلى الوجه القبلي وسوريا وغرق الألوف من سكان القاهرة في نهر النيل أثناء الرجوع^{١٩}.

يقول الجبرتي في كتابه: عجائب الآثار في التراجم والأخبار "المجلد الثالث" وهو يصف لنا الحالة التي كان عليها المصريون آنذاك قائلاً: «... واستمروا بذلك طوال الليل فخاف أهل البلد حينما رأوا ذلك، واستعد الأغنياء أصحاب المقدره على الهرب، ولكن الأمراء منعوهم. ثم جمع الناس الأموال ولم يشح بها أحد، وخرج الفقراء بالطبول ولم يبق في القاهرة سوى النساء والضعفاء، وخرج معظم الرعايا بالعصي حينما شخّ البارود. وتحول الناس كلهم إلى بولاق حيث نصب إبراهيم بك خيمته هناك، أما الريف فقد أغار عليه العربان وقطعوا الطرقات، وطلب أمراء مصر التجار من الإفرنج بمصر فحبسوا بعضهم في القلعة، وبعضهم بأماكن الأمراء، وصاروا يفتشون في بيوت النصارى الشوام والأقباط والأروام والكنائس والأديرة على الأسلحة، والعامّة لا ترضى إلاّ أن يقتلوا النصارى واليهود...».

٤ - موقعة أبي قير البحرية:

في الوقت الذي كان فيه نابليون يقوي فيه احتلاله للقاهرة علم الإنجليز بخبر الحملة بالرغم من مبالغة نابليون في كتمان الأمر، لكنهم لم يعرفوا وجهتها، فأوعزوا لأسطولهم بالبحث عنها في البحر المتوسط. وقد اتجه الأسطول الإنجليزي بقيادة "نلسون"* نحو الشواطئ المصرية، وقد سبق الحملة الفرنسية إلى الإسكندرية فلم يجد لها أثراً. فتابع سيره نحو الشرق ثم عاد إلى المياه المصرية ليفاجئ الأسطول

^{١٨} - أحمد إبراهيم وآخرون، المرجع السابق، ص ٥٧.

^{١٩} - محمود فؤاد شكري، المرجع السابق، ص ٨٧-٩٠.

* - للإطلاع أكثر عن هذا الأميرال نلسون (أنظر محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق إحسان حقي، ط١٢، دار النفائس، بيروت، لبنان، ١٤٣٣هـ-٢٠١٢م، ص ٣٧٤). (التهميش)

الإنجليزي في خليج أبي قير حيث دارت بين الأسطولين معركة حامية الوطيس انتهت بتحطيم الأسطول الفرنسي في الفاتح من أغسطس ١٧٩٨م^{٢٠} فقطع بذلك المواصلات بين نابليون وفرنسا، وأصبح الفرنسيون كالأسرى.

وعندما وصل خبر ذلك إلى نابليون تظاهر بعدم الاهتمام بالأمر^{٢١}، وبدأ يسعى إلى التلاؤم مع الوضع الجديد والاكتفاء بموارد مصر. فأخذ يرسم الخطط اللازمة لفرض سيطرته على جميع منابع الثروة المصرية^{٢٢}.

٥ - سياسة نابليون في مصر:

وبناء على ما سبق بدأ يتقرب إلى المصريين متظاهرا بحبه لهم ولتقاليدهم وشعائرهم الدينية، محاولا إشراك وجهائهم وعلمائهم في الحكم بعد تأليفه لحكومة وطنية تكون أداة تمكّنه من الوقوف على رغبات المصريين، ويتخذ منها وسيلة لنشر أوامره^{٢٣} والسهر على تطبيقها. وراح ينظم الإدارة ويدرس المشروعات العمرانية والإنمائية. وقد أوعز للعلماء الفرنسيين الذين رافقوا الحملة بدراسة اقتصاديات مصر والعمل على تنميتها وتطويرها.

ويقال أن بونابارت سمى نفسه "علي بوناباردي باشا" وارتدى الزي الذي اعتاد المشايخ إرتدائه، وتردّد على المساجد، وتظاهر أحد قواده أيضاً وهو "جاك مينو" باعتناق الإسلام وسمى نفسه عبد الله. وبعد ذلك فرض نابليون الضرائب الباهظة والإتاوات النقدية والعينية، والغرامات الاستثنائية، وصادر جميع احتياطات الأغذية والعلف^{٢٤}.

أربكت وأزعجت الحملة الخليفة العثماني عبد الحميد الثاني مما دفعه إلى عقد تحالف مع بريطانيا في ٥ يناير ١٧٩٩م بهدف التعاون معها لإخراج الفرنسيين من مصر وأهم ما جاء فيه:

^{٢٠}- عبد المنعم الهاشمي، المرجع السابق، ص ٤١٠.

^{٢١}- نفسه.

^{٢٢}- أحمد إبراهيم وآخرون، المرجع السابق، ص ٥٧.

^{٢٣}- للإطلاع أكثر أنظر، محمود فؤاد شكري، المرجع السابق، ص ٨٧، ص ٩٠.

^{٢٤}- علي حسون، تاريخ الدولة العثمانية، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٩٨٠م، ص ١٥٢. وأنظر كذلك

عبد المنعم الهاشمي، المرجع السابق، ص ٤١٢.

أ- تعهد كل طرف بضمان أملاك الطرف الآخر.

ب- ضرورة مواصلة الحرب ضد فرنسا حتى إخراجها من مصر.

ج- عدم إقدام أحد الطرفين المتعاقدين على إبرام صلح منفرد مع الأعداء دون موافقة الطرف الآخر^{٢٥}.

والظهار تاريخيا أن بريطانيا كانت تهدف من وراء عقدها لهذا التحالف هو الإطمئنان على سلامة الطريق بينها وبين الهند. وقد انضمت لهذا التحالف فيما بعد كل من النمسا ونابولي التي شنت الحرب على فرنسا في ٢٤ يناير ١٧٩٩م^{٢٦}.

المقاومة المصرية وثورة القاهرة الأولى ٢١ أكتوبر ١٧٩٨م:

لم يثق المصريون بالفرنسيين ولا بوعود نابليون اتجاههم ولم يستسلموا لهم بل اعتبروا وجودهم في مصر "بلاءً نازلاً". ومما زاد في نقمتهم الضرائب الباهظة المفروضة عليهم، وهدمهم لبعض المساجد لتوسيع شوارع القاهرة، ولتسهيل تحركات وانتقال جيشهم، ناهيك عن تحدي جنودهم للتقاليد الإسلامية بشرب الخمر علناً وغير ذلك من المخالفات الأخلاقية^{٢٧}، والضائقة الاقتصادية التي كانوا يعانونها والناجمة عن الحصار الإنجليزي للشواطئ المصرية، فأعلنوا ثورتهم الأولى في القاهرة يوم ٢١ أكتوبر ١٧٩٨م التي عمّت جميع الأحياء في المدينة. وكانت حقيقة حركة جهادية بلغ عددها ١٥ ألف تائر، قادها علماء الأزهر ونظمتها لجان ثورية^{٢٨} انطلقت من الجوامع، حيث ركزت المتاريس في شوارع المدينة واحتلت أبوابها وقاومت هجمات الجند الفرنسي بكل شجاعة^{٢٩}.

وقتها كان نابليون خارج القاهرة مع فصائل من جيشه، فعاد إليها وسلط مدافعه على الأحياء، واستعمل الشدة والوحشية في القمع حتى أخمدتها، مرتكباً الكثير من

^{٢٥} - محمود فؤاد شكري، الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر، ص ١٢٣.

^{٢٦} - عبد المنعم الهاشمي، المرجع السابق، ص ٤١٢.

^{٢٧} - أحمد إبراهيم وآخرون، المرجع السابق، ص ٥٨.

^{٢٨} - عبد المؤمن الهاشمي، المرجع السابق، ص ٤١٤.

^{٢٩} - نفسه

الجرائم، حيث قتل الآلاف وقطع رؤوس ستة من زعماء المقاومة ورفعوها على الحراب وطاقوا بها الشوارع^{٣٠}.

وكان من نتائج هذه الثورة ما يلي:

أ- دفعت نابليون إلى تغيير سياسته السابقة في التودّد إلى السكان وبدأ يعامل الشعب بقسوة لا مثيل لها.

ب- ألغى الديوان الوطني القديم، واستبدله بديوان آخر حرص على أن يضمّ إليه عناصر من الجاليات القاطنة في مصر ومن مختلف الطوائف إلى جانب المشايخ والعلماء^{٣١}.

٦ - حملة نابليون على سوريا:

وحيثما شعر نابليون بتحريك العثمانيين وإعلانهم الحرب عليه بإرسال حملتين عسكريتين إحداهما برية عبر سوريا وأخرى بحرية بالإشتراك مع بريطانيا لطرده من مصر، فأراد نابليون مفاجأة الحملة البرية بالهجوم عليها قبل الخروج من سوريا. هذا بالإضافة إلى أسباب أخرى دفعته إلى احتلال الشام منها:

- خشية نابليون من عودة المصريين إلى الثورة إذا علموا بدخول جيش عثماني إلى مصر فيقع بين نارين.

- رغبة نابليون في تقوية النفوذ الفرنسي في البحر المتوسط بتأسيس إمبراطورية شرقية كبيرة. إذ جاء في مذكراته أنه لو نجح في احتلال سوريا لكان قد استطاع النفوذ منها إلى الهند ثم العودة إلى فرنسا عن طريق البر^{٣٢}.

وفي ٢ فبراير ١٧٩٩م خرج بقسم من جيشه "١٣ ألف جندي" إلى العريش فاحتلها ثم احتل غزة والرملة ويافا بعد مقاومة^{٣٣} وارتكب في المدينة الأخيرة مجزرة رهيبة لطخت تاريخه بالعار الذي لا يمحي، إذ أمر بقتل أربعة آلاف جندي أسير من

^{٣٠}- عبد المؤمن الهاشمي، المرجع السابق، ص ٤١٤.

^{٣١}- أحمد إبراهيم وآخرون، المرجع السابق نفسه، ص ٥٨.

^{٣٢}- نفسه، ص ٥٩.

^{٣٣}- عبد المنعم الهاشمي، المرجع السابق، ص ٤١٤.

حاميتها وقيل: ألفا مسلم ألباني، تولوا الدفاع عنها^{٣٤} والتي استسلمت إليه، بشرط الحفاظ على أرواح أفرادها تحت ذريعة نفاذ المؤن اللازمة لإطعامهم. وهذا الشكل مناف لقوانين الحروب، ويعتبر عاراً، في جبين نابليون يلزمه إلى الأبد. ثم تقدم نحو "عكا" فألقى عليها حصاراً دام شهرين، لكنه فشل في إقحامها^{٣٥} وخسر سدس جيشه (٥٥٠٠ إصابة) والسبب في ذلك يعود إلى ما يلي:

- أن حاكمها الوالي العثماني "أحمد الجزار" قد حصنها تحصيناً قوياً بمساعدة زميل سابق لنابليون في المدرسة الحربية إسمه "فليبو".
- مساهمة سكان المدينة واستماتتهم في الدفاع عنها.
- بذل الأميرال سدني سميث* الذي خلف نلسون في قيادة الأسطول الإنجليزي أقصى ما يستطيع من مساعدة للوالي أحمد الجزار حيث كان يمدّه بالعتاد والمؤن من جهة البحر.

- نقشى داء الطاعون في الجيش الفرنسي الذي أصبح يفتك بأفراده فتكاً ذريعاً. ولذلك عاد نابليون إلى مصر ليواجه قرب أبي قير حملة عثمانية أخرى أنزلت فيها بمساعدة الأسطول الإنجليزي، فانتصر عليها انتصاراً غير حاسم، لكنه يؤس من نجاح حملته على مصر. فلما بلغه ما تعانيه حكومة الإدارة من صعوبات بسبب تحالف أوربي جديد ضدها، غادر مصر سراً مرتدياً ملابس تاجر من مارسيليا تاركا، القيادة للجنرال كليبر في أغسطس ١٧٩٩م. وبقي جيشه بدون سفن تحميه ونقص عدده إلى ١٥ ألفاً^{٣٦}.

٧- ثورة القاهرة الثانية مارس ١٨٠٠م والجلء عن مصر:

أمام تألب جميع الجهات المعادية لخليفة نابليون "كليبر" من عثمانيين ومصريين ومماليك وإنجليز، وعجز حكومة بلاده عن تدعيمه للتصدي لذلك، سمحت

^{٣٤} - نفسه.

^{٣٥} - عبد الكريم محمود غرابية، تاريخ العرب الحديث، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٩٨٤م، ص ٦٩.

* - للإطلاع أكثر عن هذا الأميرال الإنجليزي (أنظر محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية (المصدر السابق، ص ٣٧٥). (التهميش)

^{٣٦} - علي حسون، تاريخ الدولة العثمانية، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٩٨٠م، ص ١٥٤.

له دولته بتوقيع معاهدة الجلاء عن مصر التي وُقعت في العريش في يناير ١٨٠٠م^{٣٧} تنص على جلاء الفرنسيين بأسلحتهم على متن سفن انجليزية، غير أن بريطانيا لم توافق على المعاهدة واشترطت تسليم الفرنسيين أسلحتهم ومعداتهم كأسرى حرب بمقابل السماح لهم بمغادرة مصر. والظاهر من ذلك أن بريطانيا أرادت إذلال الفرنسيين وإهانتهم. فغضب "كليبر" وأراد الانتقام من ذلك وهاجم جيشاً عثمانياً متجهاً نحو القاهرة وانتصر عليه في موقعه عين شمس يوم ٢٠ مارس ١٨٠٠م^{٣٨}.

اغتم المصريون خروج "كليبر" للتصدي للعثمانيين ودخول فرقة عثمانية هربت من موقعة عين شمس إلى القاهرة، فأعلنوا ثورتهم الثانية بزعامة "عمر مكرم" وغيره فألحقت بالفرنسيين خسائر فادحة مما جعل "كليبر" يقصف المدينة بالمدفعية والقنابل حيث قتل الآلاف من سكانها ودمر أكثر من ٤٠٠ بيت^{٣٩}، وفرض على سكانها ضرائب باهظة وبدأ يعمل على التخطيط للبقاء الطويل في مصر. غير أن العثمانيين أرسلوا له الناصر السوري الجريء سراً "سليمان الحلبي"^{٤٠} الذي طعنه بخنجره فأرداه قتيلاً في مقرّ قيادته. ثم عيّن الجنرال "مينو" الذي يقال عنه أنه اعتنق الإسلام ولقب بعبد الله مينو^{٤١}. لقيادة القوات الفرنسية.

وبعد علم الإنجليز والعثمانيين بموت "كليبر" أنزلو ٣٠ ألف مقاتل في أبي قير^{٤٢} وبذلك أصبح الجنرال "مينو" الذي لم تكن له كفاءة سلفيه محاطاً بمصاعب كثيرة من كل جانب لم يستطع مواجهتها. العثمانيون من الشرق والإنجليز من الشمال والمماليك من الجنوب والمصريون من الداخل. فانهمز أمامهم "مينو" في المعارك

^{٣٧} - عبد الكريم محمود غرابية، (المرجع السابق)، ص ٧٠.

^{٣٨} - نفسه.

^{٣٩} - عبد المنعم الهاشمي (المرجع السابق)، ص ٤١٥.

^{٤٠} - للإطلاع أكثر عن المجاهد سليمان الحلبي أنظر عبد المنعم الهاشمي، المرجع السابق (اغتيال كليبر وفشل الحملة)، ص ٤١٥.

^{٤١} - وديع أبو زيدون، تاريخ الإمبراطورية العثمانية من التأسيس إلى السقوط، الأهلية للنشر والتوزيع، ط٢، عمان، الأردن، ٢٠١١م، ص ٢١٦.

^{٤٢} - عبد المنعم، المرجع السابق نفسه.

التي دارت رحاها في الدلتا والإسكندرية. وسبق ذلك أن الحاكم الفرنسي في القاهرة قد استسلم لأعدائه نتيجة الحصار الذي ضرب عليه.

وأمام هذا الوضع والهزائم التي مني بها "مينو" وجيشه أرغم على توقيع معاهدة الاستسلام يوم ٢ سبتمبر ١٨٠١م وعلى جلاء الحملة الفرنسية عن مصر. وبذلك عادت مصر إلى الحكم العثماني من جديد.

٨- نتائج الحملة الفرنسية على مصر:

النتائج التي لا جدال فيها هي تلك الدراسات العلمية المتنوعة التي قام بها العلماء الفرنسيون في مصر والتي جمعت في المجلدات المعروفة باسم "وصف مصر" "Description de l'Egypte" عام ١٨٠٩م^{٤٣} وهي من المصادر التاريخية الرئيسية التي ألفت بعض الضوء على الكثير من جوانب الحياة الاقتصادية والاجتماعية في مصر في نهاية القرن ١٨م وبداية القرن ١٩م.

ومما لا شك فيه أن لهذه الحملة آثارا نلاحظها في كتابات "الجبرتي" حيث أظهرت للمشاركة بشكل قوي أن عليهم أن يأخذوا بأسباب العلوم والمعارف الحديثة إذا أرادوا أن يواجهوا التفوق الأوربي بأساليب فعّالة. ويمكن أن نوجز هذه النتائج كما يلي:

- هذه الحملة لم تحقق أي هدف لا سياسي ولا عسكري ولا اتصال بالمستعمرات الإنجليزية ولا تكوين إمبراطورية فرنسية في الشرق العربي ولا طلب إنجلترا للصلح.

- جذبت هذه الحملة انتباه إنجلترا إلى أهمية مصر السياسية والاقتصادية والإستراتيجية لذلك سعت بكل ما في وسعها بالاتفاق مع الدولة العثمانية للإستيلاء عليها لوحدتها.

- تركت فرنسا آثارًا في مختلف النظم السياسية والاقتصادية... وغيرها رغم أنها أرغمت على الخروج منها.

^{٤٣}- جرجي زيدان، تاريخ آداب اللّغة العربية، ج٤، دار الهلال، القاهرة، مصر، (دت)، ص ٨٩.

- أنهت الحملة سيطرة المماليك وجعلت المصريين يدركون ويعرفون مدى ضعفهم وسوء تسليحهم وتدريبهم وتخاذلهم أمام الفرنسيين.
- ظهور محمد علي في هذه الظروف الضعيفة وبفضل دهائه استطاع أن ينفرد بحكم مصر.
- تأكد المصريون خصوصاً والعرب عموماً إلى ما يراد بوطنهم من شرّ وأن الحلّ الوحيد هو الاعتماد على أنفسهم.

أ- النتائج الاجتماعية والاقتصادية:

أيقظت مدافع نابليون المصريين خاصة والعرب عامة من سباتهم العميق ونقلتهم إلى أفكار وعلم جديد وأنظمة حديثة جاءت بها الثورة الفرنسية "الحرية، المساواة، الأخوة" ولا فرق بين هذا وذاك إلا بالعمل الصالح وهذا ما أشار إليه الفرنسيون أثناء إقامتهم في مصر ولاسيما في المنشور الذي أذاعه نابليون على الشعب المصري.

بنى الفرنسيون عدّة مصانع منها مصانع صناعة النسيج والورق والبارود آلات صك النقود ورفع المياه ودباغة الجلود لتعويضهم عن مصنوعات فرنسا التي انقطعت صلتهم بها وليس لسواد عيون المصريين كما يقال.

كما رافق نمو اليقظة الفكرية العامة الوعي الصحي والاجتماعي نتيجة ما شهده المصريون للفرنسيين بناء المستشفيات الحديثة، وتنظيم وسائل الصحة والوقاية من الأمراض "معالجة حمى المستنقعات، وبحث أمراض الجدري، والرمد وغيرها من طرف الفرنسيين".

ب- النتائج العلمية:

- قام العلماء الذين رافقوا الحملة "١٤٦ عالمًا" وهم من المخترعين الأذكياء والمتصلعين في مختلف الاختصاصات بدراسة وبحث أحوال الشرق حيث خططوا للمدن وجلبوا معهم مطبعة عربية وأخرى فرنسية لطباعة المنشورات الدعائية.

- وقد كوّن نابليون بونابارت مجمعاً علمياً قسمه إلى لجان مختلفة منها: لجنة التشريع والديانة والعادات، وأخرى للإدارة وثالثة لنظام الشرطة، إلى جانب

لجان التاريخ والأمور العسكرية والزراعة والصناعة والتجارة والتاريخ الطبيعي والآثار القديمة والنيل والفيضان. وقد استفاد المصريون من كل ذلك.

ج- الدراسات الأثرية والجغرافية:

- كان الهدف الأول من تنظيم هذا المجمع سياسيا واقتصاديا غرضه المساعدة على استعمار البلاد وتنظيم هذا الاستعمار وتكريسه. ولكنه سرعان ما اهتدى إلى الكثير من النتائج العلمية منها معرفة عادات وتقاليد المصريين وتدوين جزء من تاريخهم العريق.

- وضع مصور جغرافي صحيح للقطر المصري هيأت له المعلومات لجنة من المهندسين التي قامت بمسح الأراضي المصرية.

- القيام بأبحاث طبية وفنية وجوية وجيولوجية ومائية خاصة بنهر النيل وفيضانه.

- درسوا الآثار القديمة في مختلف الأماكن من البلاد المصرية ووصفوا هذه الآثار وصفا دقيقا.

- درس العلماء إمكانية وصل البحر المتوسط بالبحر الأحمر عبر برزخ السويس.

د- كشف حجر رشيد:

من أهم نتائج الحملة عثور الضابط الفرنسي "بوشار" على حجر قرب مدينة رشيد عليه كتابة باللغات الثلاث: الهيروغليفية والديموطيقية والإغريقية، مما ساعد على معرفة أسرار الكتابة المصرية القديمة. وقد نقل هذا الحجر إلى لندن من طرف الحملة الإنجليزية التي ساهمت في إخراج الفرنسيين من مصر، ووضع في المتحف البريطاني إلى أن فسره وحلّ رموزه العالم الفرنسي "شامبليون" عام ١٨٢٢م.

ورغم كل هذه النتائج وما قاله نابليون وهو يخاطب المصريين قائلاً: «...سوف يأتيكم زمان... تفتشون فيه على عظام الفرانسوية وتبكون عليها...»^{٤٤}، يتضح لنا من خلال ما ذكر أن الحملة الفرنسية كانت فاتحة الاستعمار الأوربي في الوطن العربي. لأن خلفيات هذه الحملة جعلت فرنسا وبريطانيا خلال القرن ١٩م تتنافسان

^{٤٤} - عبد الكريم محمود غرابية، تاريخ العرب الحديث، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٩٨٤م، ص ٧١.

وتتصارعان على مصر. ويتضح ذلك من موقف الدولتين الاستعمارييتين من مشروع قناة السويس والأزمة المالية المصرية والثورة العرابية وأخيرا احتلال مصر وفرض حمايتها عليها عام ١٨٨١م.